

الموسيقى والغناء

وأثرهما في ترفيق الشعور

للمؤلف

المدرس بجلوان الابتدائية للبنات

قد يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا العنوان أتي فنان أو موسيقى ، أو من الذين يستطيعون أن يرفعوا عقيرتهم بمقريات الأغاني ، ولكن الحقيقة الناصحة أتي لست واحدا من هؤلاء ، ومع هذا فإني أستطيع أن أحس وأشعر ، وأن أعبر وأصور ، وأن أتخيل ، وأسبح ، وأن أجمع بين الشقائق والنظائر في هذا الفن الجميل .

فالموسيقا والغناء كانا في أول عهدهما مقصورين على الصوت الطبيعي ، حتى تنبه الإنسان على سبيل الاتفاق والمصادقة إلى اختراع الآلات والمعازف عند سماعه صفير الهواء المتوج من الخصاص والثقوب ، فاستعمل للنفخ أنابيب القصب وللغزف أوتار القسي ونحن إذا أمعنا النظر وأرهفنا الأذن لما يبدو مائلا أمام أعيننا في الطبيعة من ثروة الجمال ، رأينا الروعة والبهجة والسحر بما يعبر لنا عن دقة صنع الخلاق العظيم والانسجام الموسيقي والتناسق والتناسب بما نسمعه من هديل الهزار وتغريد الكنار ، وصدح اليمام ، وخرير الانهار ، وحنيف الأشجار ، وتهدات نسيم الأشجار ، وهطل الويل ، وحركات المد والجزر وهبوب الرياح ، وغير كل هذا مما يعبر عنه بموسيقا الأكران .

هذا والموسيقا على رأس الفنون الروحية ، وهي وثيقة الصلة ، وطيدة العلاقة بمختلف الفنون فالمنظر الطبيعي الأخاذ يشترك في التعبير عنه الموسيقي بلحنه الجميل الناطق ، والرسام في إخراج لوحاته الفنية الرائعة ، والشاعر في صوغه له على شكل قصيدة عصماء تحفل بصوره ، وتزهو بألوانه ، وتموج بمعانيه .

وبهذه المناسبة فالقطع الأدبية شعرية أو نثرية لا تنقل في النفس فعل السحر الخلال إلا إذا تناسقت ألفاظها ، وتألفت نغماتها ، وكانت ذات جرس ورنين موسيقي يجعلها خفيفة الوقع ، جيدة السبك ، ولهذا فالأدب والموسيقا متآلفان من قديم الزمان وقد أدى تآلفهما إلى إنعاش الأدب أولا وإنعاش الغناء ثانيا ، وما مجالس الغناء بالأشعار ، وحفلات الانشاد والطرب بعيدة عن الأذهان ، وخاصة في العصر العباسي الذي راجت فيه هذه المجالس ، وشجع ملوكه المغنين والشعراء ، حتى أتوا بالمعجز المعجب والمفرح المطرب في هذا المضمار .

وإذا كان العلم يهذب النفوس ، ويصقل الأذهان ، ويربي العقول ، والرياضة البدنية تقوم ما اعوج من الأجسام ، وما احدودب من الظهور ، فإن الموسيقى - وهي لغة الشعور - ترقق الحواشي ، وتشذب العواطف ، وتخطب الوجدان ، وتناجي الاحساس وكذلك الغناء فإنه من أبلغ الوسائل في تأدية الأدب الرفيع ، وهو المزاج العذب الفرات الذي يبثون به الأدب في النفوس ، وهو الوسيلة العظيمة التي يشجعون بها الجبان ويصبرون الحزين ويشحذون بها الهمم الخاملة ، ويندون الاكف الجامدة ، ويلفون بها أقصى ما يريدون من المعاني السامية .

وقد قال أفلاطون في فضائل الموسيقى : إنها غذاء النفس ، ومبعث الاتزان والفظن ، وهي عطية آلهة الفنون الحرة التي تحول ما فينا من شاذ متنقل إلى محكم ثابت ، وترد كل تنافر إلى جناس متناسب ، وتبصرنا طريق الهدى والرشاد .

ولما كانت الموسيقا من الفنون الروحية التي توقظ المشاعر ، وترهف
الحس ، وكانت رسالة الاديان هي السمو بالروح عن حضيض المادة فقد
احتضنت الاديان فنون الموسيقا لأن فيها غذاء للارواح ، وهي - فوق هذا -
سلسيل القلوب ، وصقال النفوس ، وروضة الاذهان .

ومما هو جدير بالذكر أن الموسيقا والغناء متحان مشروعتان لا ياباهما
الدين ولا تنكرهما الشريعة مادام الغرض منهما هو الترفيه عن النفس
المسكودة ، وتهذبة الخاطر المبلبل ولندع ما يتشدد به المترمتون من أن
الدين ينكرها ، والشرع لا يبيحها ، وحسبنا في تفنيدهم أن بعض الشيوخ
من السلف الصالح قد استدلوا على إباحة الغناء وسماع الموسيقى بأحاديث
شريفة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنها ما روى عن عائشة
رضى الله عنها قالت : دخل على أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من
جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت به الانصار يوم بعثت فقال أبو بكر :
أمر مار الشيطان في بيت رسول الله ؟ وذلك يوم عيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا ،

وروى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان
وتضربان والنبي (ص) متغش بشوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي عن
وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فانها أيام عيد ، وتلك الايام أيام منى .

ومما رواه مسلم عن جابر قال : زوجت عائشة رضى الله عنها ذات قرابة
لها رجلا من الانصار فجاء رسول الله (ص) فقال : أأهديتم الغناء ؟
قالوا : نعم قال : هل أرسلتكم معها من يغنى ؟ فقالوا : لا ، فقال رسول الله :
إن الانصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا لم نخال بواديكم

أما عن سماع الموسيقا فقد روى عن عائشة أن رسول الله سافر سفرا
فبذرت جارية من قريش لئن رده الله تعالى : أن تضرب في بيت عائشة .

بدفّ ، فلما رجع رسول الله جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله :
فلانة ابنة فلان نذرت لئن زدك الله تعالى أن تضرب في بيتي بدفّ قال :
فلتضرب .

وقد روى أن الامام أحمد بن حنبل كان لا يحدث حديثاً إلا بعد أن
يفنى على عود .

وورد في التوراة : سبحوا الرب بالزممار والقيثارة ، وعند قراءة القرآن
قال النبي (ص) حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً ،
وكان داود عليه السلام يقرأ مزاميره بالألحان حتى إن بعض الطيور
كانت تقع وتموت من شدة الطرب لأنه كان حسن الصوت .

على أن « مارتن لوثر » اللاهوتي القدير قد أبان للبلاّ الوظيفة المهمة التي
تؤديها الموسيقى في المجتمع من إلهانة الطباع وتهذيب الأخلاق ، وقال على
روس الاشهاد : إنني أفسح بكل سرور للموسيقا بعد علم اللاهوت المكان
اللائق بها .

من هذا نعلم أن الأديان قد شجعت الموسيقى والغناء إذا كانا لراحة
الخواطر المكدودة ، والأعصاب المرهقة ، وقد تنبه الناس من بعيد
لاستخدام الموسيقى في معالجة بعض العلل العصبية والعقلية ، وأقدم ما يروى
من ذلك ما كان من أمر « شاول » ملك بني إسرائيل حين تخبطه روح السوء
وكان داود يضرب له بالعود فيجد روحاً .

ويروى عن فيليب الخامس أحد ملوك أسبانيا أنه اعترافه من ، وكانت
الملكة تعرف شدة ميله إلى السماع فأرسلت إلى « فارينلي » الموسيق الشهير
في مدريد تستقدمه . وأقامت له مجلس سماع في دار تجاوز مقام الملك ، فلما
سمع الملك أول فصل من غنائه حصل عنده تنبه كمن استيقظ من نوم عميق ،
وفي الفصل الثاني طرب وارتاح وأمر بأن يؤتى « بفارينلي » وبعد ما غنى
بين يديه أتى عليه وجماله وأمره أن يقترح عليه ما يتمنى .

وذكر أحد أطباء « بطرسبرج » أن وليدة لها من اللحم أربع سنوات

كانت تخاف بالليل فأشار على ذريها أن يعالجوها بالغناء فكانت أمها تجلس بجانب سريرها وتغنيها بصوت منخفض فلا تلبث أن تسكن إلى صوتها وتنام ولم يأت على ذلك شهر حتى شفيت تماما .

ولا يجهل أحدا ما للنغم من تأثير في العصب بالتسكين مرة والتهييج مرة أخرى حتى إن الجندي يقتحم الموت غير مبال ، والبصير ينشط على صوت الحدياء إلى غير ذلك مما هو مشهور ، وقد ذهب بعضهم إلى أن للسمع تأثيرا في دورة الدم ، وذكروا أن أعظم الأنعام تقوية لدورة الدم أكثرها ألفة عند الطليل ، فإذا كانت الأنعام مفرحة دق معها النبض وقوى ازدواجه وبعكسها الأنعام الشجيرة فإن النبض معها يكون عريضا لتأثيرها على العصب الممدد للأوعية .

ونقل عن بعض أطباء اليونان أن الموسيقى تشفي من الطاعون ، ولدغ الهوام - والسل والنقرس والكلب ، وذهب غيرهم إلى أبعد من ذلك ، فزعم « بورتا » أنه إذا اتخذت المعازف من خشب العقاقير الطبية وضرب بها على سماع الطليل فعلت فعل الدواء نفسه .

والذي عليه هلاء منافع الأعضاء اليوم ، أن النغم لا يخلو من تأثير في أصحاب الأمراض العصبية والعقلية ، وقد اختار ذلك « المسيو لابورد » ، وهو ممن اشتهر في استخدام النغم حتى في خلع الأضراس .

وقيل منذ القدم إن الموسيقى تجري في الجسم ، وتسرى في العروق ، فيصفو لها الدم ويرتاح لها القلب ، وهي من الأدوية المفيدة في علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية .

وفي هذا العصر قرر المجمع الطبي الدولي إدخال الغناء والموسيقى إلى المستشفيات بعد ما تبين له من نتائجها الحسنة ، وتأثيرهما الفعال في المرضى والإسراع في شفائهم .

وقديما أبدع الإغريق في صناعة الغناء أيما إبداع ، وتوصلوا به في قضاء الحوائج حتى كان إذا دجاليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة غناء ، وأسحروهم

النصائح بلسان الغناء والموسيقا فتلين طباعهم ، ويكبح جماحهم ، وتسهكن شرتهم ، وتخضد شوكتهم .

ولقد دل الاختبار على أن الطفل الرضيع يدهمه الحزن وتخفه العبرة ويركب رأسه في العناد ثم يبرح به البكاء فتغنيه أمه « نم يا حبيبي بسلام مثلاه فيهدأ مضطرب مزاجه ، وتسكن ثورة لجأجه ، وينام آمنا مستريحاً ، وذلك لان نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه .

إذن فالموسيقا والغناء يفعلان في النفوس فعل الدواء الناجع والبلسم الشافي ، ويردان إلى الناس الطمأنينة الغاربة والصحة العازبة ، ويمثلان دور الطبيب النطاسي والمداوي الآسي .

ونحن إذا أمعنا النظر ، ودققنا البحث وجدنا أن الموسيقا لم تؤثر في الانسان فحسب ، وإنما تعدته إلى الحيوان فكبحت جماحه ، وألانت طماحه وذلك عاصيه ، وروضت نافرته ، فما يروى في خرافات اليونان أن « أرميوس » كان يتسلط بأغانيه على الوحوش الضارية فيجعلها أطوع من بناته ،

وقال « بوسيه » المؤلف الفرنسي ساوى مؤكداً أن ضابطاً من ضباط « الباستيل » كان سجيناً ، فلما اشتدت به الوحشة ، وألهبه السأم ، كان يعزف على الناي فكانت تخرج إليه فأرة من أجد الاحجار ترقص على نغمة فسر الضابط بهذا المنظر ، وجعله مسلاة بدد بها وحشته ، وسرى بها عن نفسه . وقد روى أن من أفاعى الهند هامة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها « الكبرى » تعد ضحاياها كل عام بالآلاف ، وهي - مع شدة جموحها وعدوانها يذلها الغناء فاذا سمعته وهي في أعماق أجاجارها تخرج متهادية ثم تنصب درقتها نحو المخني وتمتزيمه ويسرة على رنين النغمات وتتخذ فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين .

وثبت أن الحيات تسكن كثير حيث يكثر الغناء والصفير ، وقد حدث أحد المتخرجين في إحدى كليات بيروت ، أنه وبعض زملائه عثروا على حية

صغيرة فقبضوا عليها ، وأراد أن يمتحنوا فيها هذا الأمر فجاءوا بها إلى فناء واسع وأطلقوها ، وكان أحدهم إذا عرف على معزف تقف ، وإذا توقف عن العزف تسير ، وقد امتحنوا ذلك مراراً وهم يمدون عنها فصح امتحانهم . وقد ورد في إحدى صحف بيروت أن قسيساً يقال « داويس » كان له ولد في سن الرابعة فدنا الولد من أسد مسلسل لبعض الجيران ، وكان من أشرس السباع إلى أن صار عند برائته تخففت لذلك قلوب الحاضرين ، ولم يكن هناك من يجترى على إنقاذه ورأت ذلك فتاة كانت في غرفة مشرفة على موضع الأسد ، فأسرعت وأخذت توقع على آلة موسيقية اللحن المعروف « بملك الآجام » فسر الأسد سروراً ذهل به عن فريسته ، والتفت إلى جهة الصوت مصغياً فذهب الولد مطمئناً كأن لم يكن ما يخشاه ، ولكن العجيب في هذا الأمر أن الطفل لما بلغ البيت وسمع البكاء وشاهد الاضطراب من أجله صرخ وبكى !

وأغرب من ذلك أن للغناء تأثيراً في البقر ، فإذا كانت الفتاة التي تحلب البقرة تغنى تحتها في أثناء الحلب غناء شجياً فلا شك أنها تدر لبناً يزيد مقداره على المعتاد بنسبة ٢٥ ٪ ، وكذلك الخيل فإنها مشهورة بالرقص على أنغام الموسيقا .

ومن طريف ما روى في هذا الصدد، أن ذهبت بعض السيدات الأمريكيات إلى إحدى دور « السينما » في أمريكا واشترت تذكريتين « للسيتا » واحدة لها والأخرى لكلها ولما سئلت في ذلك أجابت بأنه يجب موسيقا « الأوبرا » ويجب أن يجلس لسماعها جلسة مريحة .

هذا هو تأثير الموسيقا في الحيوان الأعجم البليد الاحساس الفاقد الشعور ، فكيف بتأثيرها في الانسان الذي يموج بالعواطف والاحاسيس ، ويزخر بالشعور والانفعال والوجدان ؟ إن الموسيقى تذهب في تأثيرها للإنسان إلى مدى بعيد واسع بحيث يتمايل عجباً ، ويترنخ طرباً ويهتز سروراً ، وقد رأى بعض المرين أن الأغاني والموسيقا تنشران بسرعة البرق على

ألست الناس فتعلهم وجاهلهم فرأوا أن تلقن الفضائل والمبادئ القومية ،
والنصرة الوطنية بوساطة الموسيقى ، وقد قطعوا في هذا البحث أشواطاً بعيدة .
والموسيقا بعد هذا كله تنشيط النفس : وتشجيع الجبان ، وتقوى
الضعيف ، وتخف بها الحركات ، ولم تخف أهميتها على قادة الجيوش منذ القدم ،
فكانوا إذا ساروا بمسكرهم وضعوا في الطليعة فرقا خاصة تنفخ في الأبواق ،
وتقرع الطبول فتثور عاطفة الحماسة في صدور الجنود ويلهمهم حب الانتصار
والفوز فيقتحمون الموت غير مباليين ، ويغالون الجوع والعطش ، ويدافعون
عن أوطانهم بقوة تفوق قوتهم .

وقال الرحالة « بروس » إن الناي الحبشى إذا عزف في ساحات الوغى
كان باعثاً على تمهيس الجنود الأحماس إلى حد الهوس والجنون ، وقال
مؤرخ ألماني عظيم « إن عزف المرسلياز في الحرب أثار في نفس الجنود
الفرنسيين حماسة وشجاعة كانت سبباً في قتل خمسين ألفاً ألمانيا ، ويقول
بعض المؤرخين إن نابليون عزاهزيمة في روسيا إلى الشتاء أولاً وإلى موسيقا
الجيش الروسي ثانياً .

وقد استغلت الموسيقى في توجيه الشعوب توجيهها اجتماعياً صالحاً ،
توجيهها يقودها إلى طرق الهداية والرشاد ، لأنها تنبه فيها عواطف الخير ،
وتوقظ الضمير فتتحرك الأريحية ، وتنشط الهمم الخائفة ، والعزائم
الراكدة .

ويروي أن معاوية بن أبي سفيان سأل عبد الله بن جعفر عن سبب تحريك
رأسه عند سماع الغناء فقال إنني أجد في نفسي يا أمير المؤمنين عند سماع
الغناء أريحية لو لاقيت عندها لأبليت ، ولو سئلت عندها لأعطيت .

والموسيقا توحى بتهدئة المزاج الثائر ، والغضب الفائر ، فقد حدث أن
قامت في « فينا » ثورة من الثورات الكبيرة التي كان الفقراء يضرمون نارها
طلباً للقوت ، فهتبت المتاجر والمخازن ووصلت طلائع الثوار إلى القصر
الإمبراطوري مهددة بالدخول إليه واتفق أن كان هنالك الموسيقى المشهور

« جوهان شتراوس » يعلم فرقته وإذا بأحد الأبناء يهرع إليه صائحاً الفوت ! الفوت ! إن الدهماء تحطم زجاج النوافذ وتهدد بالويل والشبور ، ولم يعد الحرس قادرين على صدمهم ، وفي الحال خرج الموسيقي وأفراد فرقته ، وأمرهم بالعرف فيبت الثوار لروعة الموسيقا وراقهم مارأوه من انتظام سير الفرقة الموسيقية ولباسها وحركاتها وكأنها أوحى إليهم شيئاً فما لبثوا أن غفلوا أعماهم فيه وأنصتوا إلى ذلك اللحن للطرب الذى يسحر الآلباب ، ثم أحاطوا بالفرقة الموسيقية وساروا وإياها صامتين فقادهم « شتراوس » من شارع إلى شارع بعيداً عن القصر وهكذا أخذت الثورة بلا سلاح غير الموسيقا ، وبلا ضحايا سوى النغم .

وعقب انتهاء الحرب الأخيرة فى أوربا حظر الحلفاء على الألمان غناء أو عزف الأناشيد الموسيقية الألمانية بجانب منحهم من حمل السلاح ، ومن هذا نعلم ما للموسيقا من أثر فى نظر الأمم المتحضرة ، إذا فخطر الموسيقا كخطر السلاح .

وكثيراً ما قال « هتلر » لصحبه : إن من أراد أن يعرف المانيا الاشتراكية فعليه أن يعزف أولاً موسيقا « واجزر » والعمال يطول بهم زمن الغناء البدنى فيستانسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداماً كما أن إنتاجهم يزداد بنسبة ١١٪ على حسب ما أثبتته التجارب .

وقد يلهمى الغناء أرباب المهن الدينية عن مزاولتها ، قال لص عن نفسه : دخلت ذات ليلة فى ملهى موسيقى لأترب فرصة السرقة ، ولما ارتفع صوت الغناء الشجى غاب صوابى وأهلانى الإنصات له عن مزاوله مهنتى فخرجت من الملهى مملوء الأذنين ، صفر اليدين ، عائداً بخنى جئين وبعد هذا وغير هذا فالغناء والموسيقا هما رى الصادى ، وغذاء الطاوى ، وزاد المسافر وعلالة المقيم ونقل المبرد عن عمر الوادى أنه قال : أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى مرتفع من الأرض فسمعت غناء لم أسمع بمثله ، فأنحدرت إليه فإذا عبد أسود فقلت له أعد علي ما سمعت فقال لى : والله لو كان عندى

قرى أقرئك به ما فعلت ، ولكنى أجمله قرارك ، فأنى ربما غنيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط وربما غنيت وأنا عطشان فأروى .

وألمانيا بعد الحرب الأخيرة قد فجعت فى آمالها ، وطوت نفسها على الحسرة ، وهى الآن ليس لها من طعام وشراب سوى الموسيقى ، فالموسيقا هى عزاؤها والموسيقا هى غذاؤها .

فالموسيقا إذن تسمح يدها الحانية الحادية العطوف صداً لهم ، الذى يرين على القلوب وتزيل بنشوتها الفرحة المرححة الطروب عناكب البؤس المخيم على النفوس ، والموسيقا تفتأ من ثورة الأيام ، وتعلم من أظفار المصائب ، وهذا فوق أنها مهذبة الطباع ومشذبة الأخلاق ، وذاهبة بالإنسان إلى أودية ترف بالآمال العذاب وتحفل بطوالع السعود .

ورأى أن الناس لا يصمتون أثناء الغناء والطرب إلا لأن حسهم قد طار على جناح نعامة إلى أودية الخيال وعقولهم قد ركبت متن الريح إلى عالم يزخر بطيوف من المنى وهالات من الرؤى ، وهم لا يصفقون استحسانا ولا يكدون حناجرهم هتافا أو دعاء إلا لأن المغنى أو الموسيقى بعد أن صمت قد ردم بقاءة ، وبدون تمهيد إلى عالم الواقع المرير ، فهم بهذا لا يودون الرجوع إلى الحقيقة الصادقة الفاجعة ، وكأنى بالإنسان إذا خاطب سمعه لحن جميل ، أنه يصمت ليسمع مع الموسيقا دقائق قلبه الرأبض وعناء عواطفه وأحاسيسه وكأنى بلسان حاله يقول : أذهى إلى غير رجعة أيتها الأفكار السوداء ، واعزبى إلى غير عودة أيتها الأشباح الخفيفة ، واقبلى أيتها الآمال الباسمة ، وأشرقى فى سماء أيتها الأمانى السمان ، فقد أضحت الحياة باسمة الحيا ، ناضرة الجنبات ، كل شىء فيها ضاحك باسم ، وكل ماحولى يبشر بالخير العميم .

فالموسيقا إذا تفلح الأفكار الشوهاء من الأذهان ، وتزرع اليأس والضيق والألم وتغرس مكان هذا الأمل والفرح والتجديد المحبوب والتخيير المرغوب .

وبعد ، فان عالمنا حافل ومفعم بضروب المتاعب وألوان الآلام : فهذه
 حادثات الليالي ، وأزمات الأيام ، وهذه كوارث تنزل على الانسان من
 فقر وفقد عزيز ، وفراق صديق ، وفشل قد يقابل الانسان ، وعقبات كأداء
 قد تعرض له في الحياة ، وهذا تعب من العمل ، ومضايقات من معاملات
 الناس ، وهذه آمال تروح ، وفوق الصدر ، وطموح يحثم على النفس ، وكل
 هذا يستلزم الترفية عن النفس ، ويتطلب شحذ الهمم ، وما الموسيقا والغناء
 إلا المرفه البريء ، والزائد الذي لا يكذب ، والصديق إذا عزت الأصدقاء ،
 وندت الاخلاء .

جعل الله حياتنا جميعا أغنية عذبة في فم الزمان ، وصير عيشنا لحناً جميلاً
 تصدح فيه موسيقا الهناء والسعادة ، وتترد فيه بلايل الين والإقبال .

طه خطاب طه